

التاريخ في فرنسا
من الدولة إلى المجتمعات
ومن السياسي إلى الثقافي

L’Histoire en France
De L’Etat aux sociétés, du politique au culturel

لويس ـ جان كالڤيه(*) (LOUIS - JEAN CALVET)

ترجمة: د. محمد عثمان بن بركة

قسم اللغة الفرنسية كلية اللغات، جامعة طرابلس.

لقد تعرضت كتابة التاريخ خلال قرن من الزمان لتغيّرات متعددة: ترك التاريخ السياسي الحدثي(**) المرتبط بخدمة الدولة مكانـه لتاريخ اجتماعـي ـ اقتصادي مرتبط بحقبة طويلة. ولقد انسـحب تاريـخ الملـوك أمام تاريـخ المجتمعات وأسـاطيرها وثقافاتهـا ورموزهـا. ويبـدو أن الأبحاث اليـوم أصبحت أكثر لمعاناً، كما أن المؤرخين يواجهون الشروط المتعلقة بكتابته...

نشـر أندريه شرڤال (A. CHERVEL) 1977م، كتابه تاريخ النحو الفرنسي (Histoire de la grammaire française) وتعتبر

(*) لويـس ـ جـان كالڤيـه، كان طالبـاً بمدينـة نيـس. انتخب عـام 1964 بالمكتـب القومي للاتحاد القومي للطلبة الفرنسـيين وكلف بالإعلام وترأس تحرير مجلة 21.27 الشهرية.

(**) أي التاريخ المتعلق بالأحداث.

أول جملـة فيه برنامجـاً متكاملاً: «وكان من الواجب تعليـم الكتابة للأطفال الفرنسيين» ومن الممكن تحريف هذه العبارة قليلاً والقول بأن لعلم التاريخ في فرنسـا ومنذ أمدٍ بعيدٍ، انعكاسـاته على أسلوب تعليم الأطفال الفرنسيين لتاريـخ بلادهم. أي أن تعليم التاريخ بالمـدارس والمرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يسمى التربية الوطنية يجب أن يضمن ارتباطهم القومي ولمن يريد أن ينتقل بين النظريات التاريخية فهناك سـبيل واضح أمام كل شـخص: ما هو مصير هذه النظريات إذا ما تُرجمت إلى كتب مدرسية ومناهج؟.

إن أول نمط للتعليم هو العرض التتابعي المتواصل للتواريخ والأسـماء؛ أسماء المعارك والثورات وتواريخ الميلاد أو الموت والتتويج: في عام 732م (شـارل مارتل يهزم العرب في بواتييه) في عام 800م (تتويج شـارلمان) وفي عـام 1515 (معركـة مارينيان) وفـي عام 1789م (الثورة الفرنسـية) الخ... وكان لهـذا العـرض ألتتابعي المتواصـل معنى: التقدم، الدسـتور، ثم إصلاح البلاد. وكان لـه هـدف أيضاً: إعداد الأُمة؛ وهو في الأسـاس بطولـي وكان له وظيفة كذلك: تكوين مواطنين، أو ربما جنود في المستقبل يدافعون عن الأُمة إذا لزم الأمـر فقد كانت مشـكلة الالزاس فـي دائرة الاهتمامات، والالـزاس ـ لورين فرنسية لكنها تحت السيطرة الألمانية ومن الواجب استعادتها وإلحاقها بالأمة. واختصاراً فإن التاريخ ووضعه في مناهج مدرسية هما في خدمة الدولة.

إن المؤشر الواضح لهذه «الوظيفة القومية» في تدريس التاريخ هو تدريسه بوجه «حضاري» بمعنى إبراز دور فرنسا في تحضير الشعوب الأخرى، أو أنه ذو رسالة حضارية مثلما كان التلاميذ يدرسون العصر الاستعماري أو احتلال الجزائـر وذلك بوضع علامة وردية على المسـتعمرات فوق الخريطة المعلقة بالفصـل؛ وهـي الطريقـة نفسـها في تقديـم التاريـخ للتلاميذ الأفارقـة (عندما نحدثهم عن أجدنا الغاليين ـ les Gaulois...) هذه العبارة تهكمية والمقصود بها تعليم التلاميذ الأفارقة على أنهم من أصول فرنسية. «المترجم»).

إن لهذا التاريخ اسما هو التاريخ الحدثي؛ وفي رؤيته هناك غائب كبير: هـو المجتمعـات، وهـو في الواقع تاريـخ منظور إليه من فـوق وهو كذلك تاريـخ يتجاهل التيارات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى؛ انه تاريخ السـرد. ان السرد لما سبق يتضمن النظرة للماضي من وجهة نظر الحاضر وهو يعني أنه تقريب للتاريخ وله غاية: وهدفه أن نعيش التاريخ.

إن هـذه الرؤيـة للتاريخ، التي تـم إبعادها لا زالت تطال مجال النشـر؛ ولا زالت الكتب المنشـورة تباع بصورة جيـدة مثل كتب الان ديكو (Alain Décaut) أو كتـب هنـري امـورو (Henri Amouroux) الموضوعـة لجمهـور عريـض محـب للقـراءة فـي التاريـخ والمخصصـة للمعارك والشـخصيات السياسية.. ربما وجد هذا الجمهور فيها صدى للتاريخ الذي كانوا يدرسونه بالمدرسة في مقتبل العمر.

مدرسة الحوليات (والتاريخ الجديد)

إن مدرسـة الحوليـات هـي التـي عزلـت التاريـخ العرضـي التتابعي المتواصل والحدثي عن مكانته في فرنسا، وهي تدين بتسميتها إلى مجلة صدرت عام 1929م تحت اسم: حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي: إذن الاقتصـاد والمجتمـع هما محور البحث الجديد الذي يسـلط الضوء على شـيء آخر غير العـرض التتابعي المتواصل للأحـداث. غير أن هذه (الثـورة) لا تدين بشـيء للجيل الذي سـبقها. وكان لعالم الاجتماع اميل دور كهايـم 1857 – 1917 (Emil Durkheim)، والمؤسـس لمجلـة الحوليـة الاجتماعيـة (L'année Sociologique) منـذ عـام (1897) تأثيـر عظيـم على العلـوم الاجتماعيـة الأخرى، ولذا فقد انتقد أحـد تلاميذ دور كهايم وهو فرنسـوا سـيميون (François Simiand) منـذ عـام 1903م كتـاب المنهـج التاريخـي التطبيقي فـي العلوم الاجتماعية، وهو عنوان الكتاب الذي ألّفه

شارل سنيوبو (Charles Seignobos) مع وجهة نظر مضادة: على التاريخ ان يستلهم من المنهج الاجتماعي (السوسيولوجي). فهو يثور على غياب العلمية في التاريخ ويندد بما يعشقه المؤرخون مثل (الحدث، الشخصية، التواريخ) ويطالب باستعمال الإحصائيات ودراسة الظواهر المتكررة والمنتظمة والظواهر العامة وباختصار، كما يقال بأسلوب عامي، «تحطيم الكوخ» أي هدم ما تم بناؤه، وسيكون لهذا المنهج آذان صاغية. إن تأسيس الحوليات من مارك بلوك (March Bloch) ولوسيان فيڤر (Lucien Febvre) هو الصدى الأول للعنات الخيالية؛ وهما يقبلان بالنقد ومتأثران ايضاً بالمفهوم الدوركهايمي للمظاهر الاجتماعية ويؤسسان مدرسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي.

أما الصدى الثاني فسيكون لأرنست لابروس (Ernest Labrousse)؛ فالتاريخ الذي يدعو إليه يسير على منوال العلوم الطبيعية وذلك بطرح الفرضيات في مقابل المواضيع المدروسة واختيار المعطيات المتوفرة لدى الناس (التوثيق التاريخي) والعوامل التي تعتبر دائمة (العوامل السكانية الديموغرفية، الأسعار، المداخيل، الخ..) وهو ما يؤدي بذلك إلى تاريخ كمي وكلماته الأساسية هي: الاقتصادي، الاجتماعي، الفكري. إن أعمال فرنانـد بروديل (Fernand Braudel 1985-1902) هي من يكمل هذه الطريقة بينما التاريخ هو في العموم وبامتياز علم التطورات التاريخية والتقدم والتغير وسيطالب «بتاريخ جامد» ويطبقه مع تفضيله للحقبة الطويلة وإهمال الأحداث على اعتبار أنها وقائع منوعة أو بالأحرى نفايات التاريخ. فهو في الواقع، كان يميز في الواقع بين ثلاث مراتب في التاريخ: الأولى مرتبة الزمن الطويل وهو أساساً غير متحرك، إنه زمن العلاقات بين الإنسان وميحطه ولا تتنوع أبداً ثم المرتبة الثانية وهي التاريخ الاجتماعي

للمجتمعات والدول. وأخيراً المرتبة الثالثة وهي زمن التاريخ السريع والذي يسرد عموماً «التاريخ الساخن» وهو ما يحذر منه «لنحذر من هذا التاريخ الذي لا زال ساخناً، والذي أحس به المعاصرون ووصفوه وعاشوه على إيقاع حياتهم وهو ما يشبه تاريخنا. إن لهذا التاريخ بعداً متعلقاً بغضبهم وأحلامهم وخيالاتهم» لقد استبعدت شخصيات أو على الأقل تلك التي تعودنا عليها، لأن بردويل في مؤلفه الشامل المتوسط والعالم المتوسطي في عصر فيليب الثاني، الذي كتبه عام 1949، ويجعل من القارة المائية الشخصية المركزية (La Méditerranée et le monde méditerranien à l'époque Philppe II) ولكي يبيّن ما يدين به برويل لمقالة سيميون، فقد أعاد نشرها عام 1960 بالحوليات وهو ما يغطي مرحلة تمتد إلى أكثر من نصف قرن.

لقد طرحت الكثير من الأسئلة وأثيرت الكثير من المواضيع: المظاهر الاجتماعية، المتخيل، العقليات، الأساطير مع «التاريخ الجديد» المنبثق من مدرسة الحوليات تحت إشراف جاك لوغوف (Jacques le Goff) وپيير نورا (Peirre Nora) وقد برز أيضاً مؤرخون مثل جورج دوبي (Georges Duby) وذلك في تاريخ المظاهر في كتابه زمن الكاتدرائيات (1976) (Le temps des cathédrales) وكذلك امانويل لوروا دوري (Emmanule le Roi Ladurie) في التاريخ المحلي وكتابته: مونتايو (Montaillou, village Occitan de 1294 à 1324 مونتايو، قرية اوكسيتانية 1294 - 1324 (1975) وجان پيير فرنان (Jean Pierre Vernant) الذي رحل مؤخراً، ونحيي ذكره هنا، إلى جانب پيير ڤيدال - ناكيه (Peirre Vidal - Naquet) وهذان الأخيران هما اللذان صورا فهمنا لليونان ولحاضرنا في كتابه الاسطورة والتراجيديا في اليونان القديمة (1972) Mythe et tragédie en Gréce.

التاريخ السياسي والثقافي

دون الانفصال بالضرورة، عن المبادئ الكبرى لمدرسة الحوليات، فقد اتجه التاريخ فيما بعد نحو انماط أخرى من التساؤلات، كان بردويل يتحدث عن «الحقبة الطويلة» التي تعتبر الأحداث فيها ثانوية كما تحدث عن تاريخ جامد وطعن في البحث المتعلق بالحدث. فهل تعدّ الأحداث القريبة مثل: الشيوعية، النازية والاستعمار ومعارك التحرر كذلك ثانوية؟

ان هذا التساؤل هو الذي أدى إلى عودة تاريخ سياسي وحدثي محاولاً دراسة هذه الظواهر من وجهة نظر أخرى بالإضافة إلى دراسة الظواهر والايديولوجيات؛ فهناك محاور تم إغفالها إلى الآن: الانتخابات الرأي، السيرة الذاتية للناشطين الأفكار السياسية، دور المثقفين، أهمية الدين، الخ.. وهكذا فإن تحليل فرنسوا فوريه (F. Furet) يقلب القراءة الرسمية للثورة الفرنسية إن كتاب رونيه ريموند (R. Remond) اليمين في فرنسا (La droite en France) (1954) يعتبر ذا أهمية تاريخية كبرى في إعادة الاعتبار لتاريخ الزمن الحاضر والعودة لتاريخ الحدث والتاريخ السياسي.

فوكو وغير المصنفين

وتوازياً مع السابقين فالبعض من غير المصنفين ينتسبون إلى تاريخ ثقافي يبحث في المظاهر المتتابعة للعالم والأخلاق والأفكار، وعلى المنوال نفسه، فقد رأينا أن علم الاجتماع لدى اميل دور كهايم كان قد سبب في تجديد المدرسة التاريخية الفرنسية وهذا هو فكر ميشيل فوكو (1926 - 1984) الذي استخدم هذا كمحرك لهذه المدرسة. ان فوكو باهتمامه بهذا الركن الأساسي أو ما يسمى باركيولوجيا الظواهر، كان قد دافع في الواقع عن الفكرة القائلة بأنه ليس من الممكن الحصول على رؤية شاملة لمجتمع ما، أو عن وصف مترابط للسلوك الانساني الذي يمكن ان يوصف

بكل شيء إلا أن يكون مترابطاً. ولقد بيّن فيما يتعلق بالسجن والجنون على وجـه الخصوص، بأن مفاهيمنا تتنوع مع الزمن، وبأنها تاريخية فلكل عصر فكرته عن المجنون وعن المتهم، وعن الذي يجب إبعاده وعن الذي يجب سجنه. اننا نعود منذ الآن فصاعداً إلى تحليل الثقافات الشعبية، والتقاربات الدينية، والغرائز والاحساسات. وأمام بعض التفتت للعلم التاريخي وتوقف «التاريـخ الجامد»، فـإن العالم الموصوف باعتباره مظهراً هو ما يسـعى إليه التاريـخ السياسـي والتاريخ الثقافي على حد سـواء: كيـف تتصور الكائنات الانسانية العالم الذي يحيط بها؟ هناك اهتمام، من الآن فصاعداً، بالوسائط والوسـائل الإعلامية (الصحافة) على سبيل المثال، والساسيات (المتاحف، الخ..) والممارسات الثقافية.

إن هذا التاريخ السياسي والثقافي يتوافق أيضاً مع تقهقر الشيوعية التي لم تكن تتجه في تفسير الأشياء إلا في اطار صراع الطبقات والاغتراب.

كيف يسرد التاريخ للاطفال؟.

إن العبارة التي أوردها اندريه شـرفال في البداية وكان من الواجب تعليـم الكتابـة للأطفال الفرنسـيين يمكن أن يضيف إليهـا عنوان كتاب آخـر «كيف يسـرد التاريـخ للأطفال» لمؤلفـه مارك فيـرو (Marc Ferro) (Comment on raconte l’histoire aux enfants).

فـي الحقيقة هناك ميل إلى التوقف عن سـرده لهـم فهل كان للتغيرات النظريـة التـي أشـرنا إليهـا اثار علـى هـذا التعليم، لقـد تخلـى التاريخ في المدرسـة منذ وقت طويـل عن رؤية العرض التتابعـي للتاريخ الحدثي، بل تبنـى نموذجـاً مسـتلهماً مـن نظريـات ارنسـت لابـروس فـي التقابـل بيـن «الهيكليات» و«الأوضاع» فالأولى منها تعيد الأحداث وعلى المدى الطويل، إلى الأسـباب البعيدة؛ بينما الثانية تعيدها إلى مسـببيها في الوقت الحاضر،

وهكذا لم تعد تدرَّسُ حياة لويس الرابع عشر أو حياة بونابرت، ولكن حياة الفرنسيين في القرنيين الثامن عشر والتاسع عشر، حتى وان بقينا في تتابع الحقب. وفي إطار الاتجاه نحو استقلالية الأطفال والاهتمام بأنماط الحصول على المعرفة، فقد اقترح عليهم دراسة المصادر والصور والنصوص والوقائع والأساطير. إلى جانب دفعهم إلى ان يسلكوا في دراسة المصادر مسلك المؤرخين. إن هذه الخطوة والتي تعطي معنى لقراءة كل ما سبق تطرح بعض الأسئلة: إنها تقدم في الوقع النسيان والغياب، وغياب المعلم ومعرفته وكلامه. وكان كلام المعلم يعتبر ذا طبيعة تَحُدُّ من حرية التلميذ ولكنها تحد كذلك من المعرفة المبنية والبناءة التي يمنحها الأستاذ.

إذن يتجه التعليم اليوم إلى تقاطع هذه المناهج مع كامل الاحترام لاستقلالية التلاميذ مع الفرضيات المطروحة من الاستاذ. فالفكرة العامة لا تكمن في تكوين الطفل القادر على التحليل النقدي للوثائق فحسب ولكن القدرة في فهم الظواهر الاجتماعية الكبرى كذلك؛ فنحن، كما هو مشاهد، بعيدون جداً عن التاريخ المدرسي منذ بداية القرن العشرين.

المجازفة بالقانون

لقد عرفت فرنسا منذ سنوات قليلة دخول القانون في مجالات كان من المعتقد اقتصارها على التاريخ. هناك قوانين عديدة قانون غايسو (Gayssot) ضد النفيوية (الانكارية الرفضية) 1990 وقانون (Taubira) حول الاعتراف بالاستعباد (2001) وقانون الدور الايجابي للاستعمار 2005 وقانون الاعتراف بإبادة الأرمن 2006: ان الجمعية الوطنية، وبالرغم من المظاهر، هي التي لم تبث كثيراً فيما يستحق العقاب بل فيما كان حقيقياً، وهو إذن ما لم يكن لأحد الحق في طرحه للنقاش.

لقـد سـببت هـذه التدخـلات التشـريعية كثيـراً مـن الاحتجاجـات وخصوصاً المتعلقة بالاسـتعمار والإبادة للأرمـن. وطبيعي أجاءت هذه الاحتجاجـات مـن الدول المسـتعمرة قديمـاً (بفتح الـراء) أو من تركيا ولكـن على وجه الخصوص تلـك التي أتت من المؤرخين. ففي الحالة الأولـى التعرف على اتجاه حديث نحو الاعتذار (ونحو فرض الاعتذار هنـا) أي علـى فرنسـا أن تعتـرف بأخطائهـا أمـا الحالـة الثانيـة، فـكان المؤرخـون يطالبـون بمـا كان علـى البرلمانييـن (النواب والشـيوخ) ان يفعلـوه في ندوة حول مواضيع التاريـخ وكانوا يتمنون (أي المؤرخون) ان يعطي الخبز لخبازه أي يُتْرك لهم الحديث والقيام بأعمالهم. والحقيقة فإنـه مـن المضحـك أو غيـر المحتمـل ادعـاء السياسـيين الحديث عن التاريخ. لكن ذلك الادعاء ربما يعكس شيئاً من تطور المؤرخين الذين لـم يتحدثـوا عنـه اليوم أو لم يعـودوا يتحدثـون عنه. وبتركهـم (احدى معبوداتهـم) «الحـدث» وهـو ما أوصاهم به فرنسـوا سـيميون فـي بداية القرن العشـرين، فقد رأى المؤرخون عودة الحدث إليهم بصورة كاملة. فإن النازية والستالينية والاستعمار والمذابح من كل الأنواع تطرح أسئلة أمـام المعاصريـن، وهي فـي الوقت ذاته اسـئلة اخلاقيـة وحقائقية: هل حـدث هذا فعـلاً، وكيف كان مـن الممكن حدوث ذلـك؟ حيارى بين مختلـف أنـواع النفيوية (هذا لم يحـدث) والصمت النسـبي للمؤرخين (الحـدث هـو ما رأيناه مـن جانب صغيـر) لقد اعتقد بعـض النواب أن عليهـم أو باسـتطاعتهم أن يحلـوا محـل المؤرخيـن. ولكـن هل يمكن اعتبار هذه الانحرافات منتوجاً لحدة مبادئ مدرسة الحوليات والتي هي مطلقـاً «ضـد الحـدث». ما هو أكيد، هي شـهادة على مطلـب اجتماعي وعلـى انتظـار جمهور يواصل الاحتفـاظ بصورة عـن التاريخ لا تتوافق أبداً مع صورة المؤرخين عن التاريخ نفسه.

CULTURE ET SOCIÉTÉ
TÉLÉVISION

Une information française internationale

Lancée en décembre 2006, la première chaîne française d'information internationale en continu, France 24, va devoir trouver sa place auprès d'autres grandes chaînes internationales et répondre aux vœux de ses créateurs qui est de faire entendre et voir un point de vue français sur les grands événements de ce monde.

TV5MONDE VA AU KIOSQUE

Difficile mise au point

Un nouveau paysage audiovisuel international

CULTURE ET SOCIÉTÉ
SCIENCES HUMAINES

L'Histoire en France

De l'État aux sociétés, du politique au culturel

En un siècle, l'écriture de l'Histoire a subi plusieurs révolutions : l'histoire politico-événementielle au service de l'État a fait place à une histoire socio-économique s'attachant à la longue durée. L'histoire des rois a cédé devant celle des sociétés, de leurs mythes, de leurs cultures, de leurs représentations. Aujourd'hui, la recherche semble plus éclatée. Et les historiens font face à la loi qu'ils refusent d'écrire...

صدر هذا المقال باللغة الفرنسية في مجلة: الفرنسية في العالم (Le francais dans le monde) العـدد 350 مـارس - ابريل 2007 ص ص63 - 65 وتصدر هذه المجلة عـن الفيديرالية الدولية لمدرسـي اللغـة الفرنسـية (La Federation international des professeurs de Francais) عنـوان المقال: (L'histoire en Francaie. De l'Etat aux societies, du politique au culturel).

L'école des Annales et la « Nouvelle histoire »

C'est l'école des Annales qui va détrôner en France cette histoire linéaire et évènementielle. Elle doit son nom à celui d'une revue, créée en 1929, dont le titre est explicite *Annales d'histoire économique et sociale*. Économie et société sont donc au centre d'une nouvelle approche qui va mettre l'accent sur tout autre chose que la linéarité, la succession d'évènements.

Mais cette « révolution » ne doit rien à la génération spontanée. Le sociologue Émile Durkheim (1858-1917), créateur de la revue *L'année sociologique* (à partir de 1897), a eu en effet une énorme influence sur les autres sciences sociales. Or, un des élèves de Durkheim, François Simiand, critique violemment en 1903 l'ouvrage de Charles Seignobos, *La méthode historique appliquée aux sciences sociales*, en inversant le point de vue : c'est à l'histoire de s'inspirer de la méthode sociologique. Il s'insurge contre l'absence de scientificité de l'histoire, stigmatise ce qu'il appelle les « idoles » des historiens (comme l'évènement, le personnage, la chronologie), préconise l'utilisation des statistiques, l'étude des phénomènes répétitifs et réguliers, de phénomènes généraux, bref, en termes populaires, il « casse la baraque ». Et il sera entendu.

La création par March Bloch et Lucien Febvre des *Annales* est le premier écho à ses imprécations visionnaires. Ils admettent ses critiques, sont également sensibles au concept durkheimien de *représentations sociales*, et créent une école d'histoire *économique et sociale*.

Ernest Labrousse sera son second écho. L'histoire sociale qu'il initie procède comme les sciences de la nature, se donnant des hypothèses face à ses sujets d'étude, choisissant dans la masse des données disponibles (la documentation historique) des facteurs considérés comme pertinents (les facteurs démographiques, les prix et revenus, etc.), aboutissant ainsi à une histoire quantitative, dont les maîtres mots sont l'*économique*, le *social*, le *mental*.

> Si l'**Histoire** s'apparentait **aux origines** à une enquête, c'est sur elle-même qu'elle **enquête** aujourd'hui, ce qui constitue une définition comme une autre de l'**épistémologie**.

Les travaux de Fernand Braudel (1902-1985) vont parachever cette démarche. Alors que l'histoire, pour le sens commun, est par excellence la science de la diachronie, de l'évolution, du changement, il va prôner et pratiquer une « histoire immobile », privilégiant la longue durée et négligeant les « évènements » considérés comme des faits divers, voire des poussières de l'histoire. En fait il distinguait dans l'histoire trois étages. Celui d'un temps long, tout d'abord, immobile, le temps des rapports entre l'homme et son milieu, qui ne varient guère. Puis celui de l'histoire sociale, des sociétés et des États. Et enfin, le temps de l'histoire rapide, celle que l'on raconte en général, « l'histoire brûlante » dont il se méfie :

« Méfions-nous de cette histoire brûlante encore, telle que les contemporains l'ont sentie, décrite, vécue, au rythme de leur vie, brève comme la nôtre. Elle a la dimension de leurs colères, de leurs rêves, de leurs illusions. »

Les personnages sont donc exclus, du moins ceux auxquels nous sommes habitués, car Braudel dans son œuvre maîtresse, *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* (1949), fait de ce continent liquide un personnage central. Et, pour marquer sans doute ce qu'il lui devait, Braudel rééditera en 1960 dans les *Annales* l'article de Simiand, bouclant ainsi une boucle de plus d'un demi-siècle.

Avec « la nouvelle histoire », issue de l'école des Annales, dirigée par Jacques le Goff et Pierre Nora, de nouvelles questions sont posées, de nouveaux thèmes sont soulevés : les représentations, l'imaginaire, les mentalités, les mythes ; et avec eux, de nouveaux historiens émergent : Georges Duby pour l'histoire des représentations avec *Le Temps des cathédrales* (1976), Emmanuel Le Roy Ladurie[1] pour l'histoire locale, avec *Montaillou, village occitan de 1294 à 1324* (1975), voire Jean-Pierre Vernant – tout juste disparu, et à qui nous rendons hommage – et Pierre Vidal-Naquet qui révolutionnent la compréhension de la Grèce et de notre présent avec *Mythe et tragédie en Grèce ancienne* (1972).

L'histoire politique et culturelle

Sans rompre nécessairement avec les grands principes de l'école des Annales, l'histoire s'est ensuite orientée vers d'autres types d'interrogations. Braudel parlait de « longue durée » dans laquelle les évènements étaient secondaires, « d'histoire immobile », et récusait l'approche évènementielle. Mais des « évènements » récents, comme le communisme ou le nazisme, comme la colonisation et les luttes de libération, sont-ils secondaires ?

C'est cette interrogation qui a suscité le retour d'une histoire politique et évènementielle, tentant d'étudier ces phénomènes d'un autre point de vue, en y ajoutant l'étude des représentations, des idéologies. Des axes jusque-là négligés : les élections, l'opinion, la biographie des acteurs, les idées politiques, le rôle des intellectuels, le poids de la religion, etc. Ainsi l'analyse de François Furet bouleverse la lecture officielle de la révolution française. Et l'ouvrage de René Rémond, *La droite en France* (1954), fait date dans la réhabilitation de l'histoire du temps présent, du retour de l'évènement, du politique.

Foucault et les inclassables

Parallèlement, certains, inclassables, se réclament d'une *histoire culturelle* qui interroge les représentations successives du monde, les mœurs, les idées. De la même façon, nous l'avons vu, que la sociologie d'Émile Durkheim avait suscité le renouvellement de l'école historique française, c'est la pensée de Michel Foucault (1926-1984) qui a servi ici de déclencheur. S'intéressant au soubassement, ou à l'archéologie des phénomènes, il a en effet défendu l'idée que l'on ne pouvait pas avoir une vision globale d'une société, ou une description cohérente de comportements humains qui sont tout sauf cohérents. Surtout, il a montré, à propos de la prison ou de la folie, que nos conceptions variaient avec le temps, qu'elles étaient historiques : chaque époque a son idée du fou ou du coupable, de celui qu'il faut éloigner, enfermer.

On se tourne désormais vers l'analyse des cultures populaires, des approches religieuses, des pulsions, des émotions. Face à un certain émiettement de la science historique, à un blocage de « l'histoire immobile », c'est donc le monde comme représentation que cherchent à décrire à la fois l'histoire politique et l'histoire culturelle : comment les êtres humains se représentent-ils le monde qui les entoure ? On s'intéresse dès lors aux médiations ou aux passeurs (la presse par exemple), aux politiques (les musées, etc.) ou aux pratiques culturelles.

Cette histoire politique et culturelle correspond aussi à un recul du marxisme, qui avait tendance à n'expliquer les choses qu'en termes de lutte des classes et d'aliénation.

Fernand Braudel, représentant de l'école des Annales.
© Louis Monier/Rue des Archives

Jacques Le Goff, représentant de la « Nouvelle histoire ».
© Louis Monier/Rue des Archives

René Rémond, représentant de « l'histoire du temps présent ».
© Louis Monier/Rue des Archives

Dans tout cela, on a le sentiment que l'histoire se pose désormais de véritables questions épistémologiques sur la subjectivité des historiens, sur la narrativité historique. Si l'histoire s'apparentait aux origines à une enquête, c'est sur elle-même qu'elle enquête aujourd'hui, ce qui constitue une définition comme une autre de l'épistémologie.

Comment on raconte l'histoire aux enfants

À la formule d'André Chervel rappelée en ouverture, « Et il fallut apprendre à lire à tous les petits Français », on peut accoler le titre d'un livre de Marc Ferro, *Comment on raconte l'histoire aux enfants*. Et en fait, on tend à ne plus la leur raconter. Les changements théoriques que nous venons d'évoquer ont-ils eu des retombées sur cet enseignement ? L'histoire scolaire a depuis longtemps abandonné la vision purement linéaire de l'histoire évènementielle pour adopter un modèle inspiré des théories d'Ernest Labrousse, à la croisée des « structures » et des « conjonctures », les premières renvoyant au long terme, aux causes lointaines, les secondes aux déclencheurs immédiats d'évènements. Ainsi, on n'enseignait plus la vie de Louis XIV ou de Bonaparte mais plutôt la vie des Français au XVIIe ou au XIXe siècle, même si l'on restait dans la succession de périodes.

Plus récemment, dans le cadre d'une tendance à l'autonomie des élèves et d'un souci des modes d'appropriation du savoir, on leur a proposé d'étudier des sources, des images, des textes, des faits et des mythes. On les pousse à se comporter en historiens face aux sources. Cette démarche, qui bien sûr donne son sens à la lecture de tout ce qui précède sur les évolutions de la science historique, pose cependant quelques questions. Elle présente en effet un oubli, ou une absence : celle de l'enseignant, de son savoir, de sa parole. On considérait que cette parole professorale était de nature à limiter la liberté de l'élève, mais du coup on limitait aussi son information, celle que pouvait lui apporter le professeur, structurée et structurante.

L'enseignement tend donc aujourd'hui à croiser ces approches, tout en respectant l'autonomie des élèves avec des synthèses apportées par le maître, l'idée générale étant de former l'enfant à l'analyse critique de documents, mais aussi à la compréhension des grands phénomènes sociaux. Nous sommes, comme on voit, très loin de l'histoire scolaire du début du XXe siècle.

Au péril de la loi

La France connaît depuis quelques années une intrusion de la loi dans des domaines que l'on croyait réservés à l'histoire. Loi Gayssot contre le négationnisme (1990), loi Taubira sur la reconnaissance de l'esclavage (2001), loi sur le rôle positif de la colonisation (2005), loi sur la reconnaissance du génocide arménien (2006) : c'est l'Assemblée nationale qui a décidé non pas tant, malgré les apparences, de ce qui était punissable mais de ce qui était vrai, et qu'on n'avait donc pas le droit de mettre en question.

Ces interventions législatives ont suscité beaucoup de protestations, en particulier celles concernant la colonisation et le génocide des Arméniens. Protestations venant des pays anciennement colonisés ou de la Turquie, bien sûr, mais surtout protestations venues des historiens. Dans le premier cas, on discerne une tendance récente à la repentance (et ici à l'exigence de la repentance) : il faut que la France reconnaisse ses torts ! Dans le second cas, les historiens demandaient ce que des députés ou des sénateurs avaient à faire dans un débat sur des points d'histoire. Et ils souhaitaient qu'on laisse aux historiens le soin de dire l'histoire, qu'on les laisse faire leur travail.

On peut en effet trouver risible ou insupportable cette prétention des politiques à dire l'histoire. Mais elle révèle peut-être quelque chose de l'évolution des historiens, qui bien souvent aujourd'hui ne la disent pas, ou ne la disent plus. Ayant abandonné, comme le leur recommandait au début du XXe siècle François Simiand, une de leurs « idoles », *l'évènement*, les historiens ont vu l'évènement leur revenir en pleine face. La nazisme, le stalinisme, la colonisation, les massacres de toutes sortes posent des questions aux contemporains. Des questions à la fois éthiques et factuelles : cela a-t-il été ? Et comment cela a-t-il pu être ? Coincés entre différents négationnismes (« cela n'a pas été ») et le silence relatif des historiens (« l'évènement est ce que l'on voit par le petit bout de la lorgnette »), certains élus ont cru devoir ou pouvoir prendre la parole à la place de ces derniers.

Mais ne peut-on pas considérer ces dérives comme le produit d'une exacerbation des principes résolument « anti-évènement » de l'école des Annales ? Ce qui est sûr, c'est qu'elles témoignent d'une demande sociale, d'une attente du public qui continue à avoir une image de l'histoire ne correspondant plus à celle des historiens. ●

LOUIS-JEAN CALVET

1. Lire l'entretien avec Emmanuel Le Roy Ladurie dans le *FDLM* n°346, juil.-août 2006.

À lire

- *Pour une histoire culturelle*, sous la direction de J.-P. Rioux et J.-F. Sirinelli, Paris, Le Seuil, 1997.
- *L'histoire aujourd'hui*, sous la direction de J.-C. Ruano-Borbalan, éd. Sciences humaines, Auxerre, 1999.
- *Le dictionnaire des sciences humaines*, sous la direction de Sylvie Mesure et Patrick Savidan, Paris, PUF, 2006.
- *Les écoles historiques*, Guy Bourdé, Hervé Martin, Coll. Points Seuil, Le Seuil, 1997.
- *Comment on écrit l'histoire ?* Paul Veyne, Coll. Points Seuil, Le Seuil, 1996.

PUBLICITÉ

DOCUMENTATION

• Essais
Société
Histoire
Littérature
Langages
Langue-Didactique

• Pour la classe
Multimédia
Outils

SOCIÉTÉ

Indispensables animaux

Notre Librairie, Revue des littératures du Sud, n° 163 sept.-déc. 2006
LA DOCUMENTATION FRANÇAISE, PARIS, 2006, 137 PP., 12,50 €

En ces temps d'inquiétude sur l'avenir de la planète Terre, se pose avec acuité la relation de l'homme avec le vivant. Journaux, émissions, livres, nous rappellent, nous humains, à l'ordre... animal. L'animal : à défaut d'être notre *alter ego*, pourrait-il être notre double ?

Les mythes, la littérature, les contes, jusqu'à notre cher La Fontaine, ne nous présentent-ils pas cette image inversée dans un drôle de miroir ? Voilà donc imbriqués bêtes et gens dans leur « humanimalité », un néologisme créé par le philosophe Michel Surya relatif à l'homme transformé, mi-homme, mi-bête.

Cependant, l'homme, en dominant le monde, repousse sa figure animale, s'élève en abaissant, mais ce faisant, se livre à des excès jugés peu humains – voire bestiaux – dans lesquels pourtant les bêtes y perdraient leur latin...

Dans son animalité de mammifère, l'homme est proie. Dans son humanité, il est chasseur. « Le chasseur trouve toujours dans l'animal quelque chose de familier », note Youssouf Tata Cissé, tandis que Augustine Asaah rappelle combien l'homo sapiens est un animal fragile.

On lira avec grand profit cet ouvrage didactique, simple et exigeant, qui finalement, nous amène à comprendre et à « apprécier la fragilité commune de l'existence ».

Marie-Christine Simonet

Territoires Nomades

Jean-Marc Durou
HOMMAGE À EDMOND BERNUS, LA MARTINIÈRE, PARIS, 2006, 368 PP., 54 €

Ce beau livre s'ouvre sur l'hommage rendu par l'auteur à deux hommes d'exception, Théodore Monod et Edmond Bernus, deux connaisseurs éclairés du désert africain et des Touaregs qui le sillonnent sans fin. Jean-Marc Durou – le photographe – et Edmond Bernus – grand spécialiste du monde touareg – ont commencé à travailler ensemble en 1984, une collaboration qui s'est poursuivie jusqu'en 2004, à la mort de Bernus. Ses textes présentés par sa fille, Caroline Bernus, nous racontent les Touaregs, ces Berbères nomades ou semi-nomades vivant dans le Sahara central, Algérie, Libye et sur les bordures du Sahel (Niger, Mali, Burkina Faso) et qui se définissent comme « ceux de la langue tamasheq ». Ils nous présentent une société complexe, aux codes stricts, dans laquelle paroles et musique jouent un rôle essentiel.

Ces textes sont soutenus par pas moins de deux cents photos qui témoignent de la vie quotidienne des Touaregs, mais aussi de celle de ces autres nomades que sont les Peuls Wodabee du Niger. Jean-Marc Durou a partagé leur vie, voyagé avec eux, les a saisis dans leur mouvement. Les images sont lumineuses – nuances de bleu et d'ocre dominant. Les visages sont rudes et les regards pudiques. Au Sahara, écrivait Théodore Monod, « même les rois redeviennent l'esclave du réel ».

Mais la réalité du monde moderne rattrape peu à peu ces peuples nomades. Ils se sédentarisent et mettent leurs enfants à l'école. Outre la puissance des clichés, l'un des mérites de ce livre est de montrer un peuple comme on montre une étoile dont la lumière parvient jusqu'à nous, mais plus pour très longtemps.

M.-C. S.

L'économie de l'Afrique

Philippe Hugon
LA DÉCOUVERTE, COLL. REPÈRES, 2006, 123 PP., 8,50 €

Économie de l'Afrique ou des Afriques ? La question mérite d'être posée tant le continent, au sud du Sahara, est divers et contrasté. Existe-t-il, s'interroge l'auteur, « une spécificité africaniste pour un économiste » et « une légitimité de l'économie pour un africaniste » ? Car il s'agit, naturellement, d'économie du développement, une discipline qui rend ce questionnement obligatoire, pour qui veut comprendre comment les structures sociales et culturelles prédisposent à un type particulier d'économie. Comme élément de réponse (entre autres), Philippe Hugon note que, si le « marché » n'a pas encore pris en Afrique sub-saharienne l'importance qu'elle revêt en Occident, c'est que « les tabous et interdits, les codes sociaux, moraux ou religieux qui l'encadrent demeurent prégnants ».



L'auteur relève également que les caractéristiques de l'économie coloniale perdurent quarante ans après les indépendances dans cette partie du continent et que les déficits budgétaires ont créé un surendettement aux « effets ravageurs », alors même que l'État n'assure plus sa fonction de redistribution. Très souvent encore, les pays africains ont des économies de rente ou des économies minières aux dividendes répartis au sein de réseaux clientélistes, par des membres des pouvoirs en place. Relégitimer l'État est une priorité, une autre est d'accepter des règles du jeu (économique) différentes selon les situations. « À défaut d'une insertion régulée positive dans la mondialisation, l'Afrique risque de devenir l'arrière-cour de l'Europe et de s'insérer de manière croissante dans une économie mondiale mafieuse », conclut l'auteur.

M.-C. S.